تأملات حول مفهوم الرومنطيقية عن حازم صاغية

الفرنسية الثورة بعد أوروبا شهدتها التي بالتحولات ظهوره ارتبط ،بامتياز غربي مفهوم الرومنطيقية من بالمخيلة يرتبط ما كل شأن من وأحطت والتقدم والعلم العقلانية شأن من أعلت التي الحداثة وقيم ، والاجتماع والفلسفة والفكر الأدب في تيارات منه تفرع نقدي تيار هو الظهور هذا لذلك . ومفاهيم قيم وبالخصوص الحداثة قيم بين الصراع تاريخ هو عشر التاسع القرن أوائل منذ الغربي الفكر تاريخ وأصبح بالمثالية أكثر ارتبطت ةّسجالي نقدية قيم من يقابلها ما وبين ، جهة من الفرنسيين المفكرين عند باتجاه الغربية المجتمعات تطورت إيقاعه وعلى السياق هذا ضمن . والجمالية والأمة كالقومية الألمانية المجالات تلك من واحدة سوى الرومنطيقية وليست . والمجالات الأصعدة جميع على المضاد والنقد النقد جامعة هوية عن والبحث الاستعمار من التحرر انّأب خصوصا العربي المشرق على بآخر أو بشكل أثرت التي . المرحلة تناسب وتاريخ قيم وعن التشكل طور في دولة وعن

عند الكاتب حازم صاغية في كتابه (رومنطيقي المشرق العربي) دار رياض الريس - بيروت ٢٠٢١ تبدو الرومنطيقية كأنها ذلك التوتر الطويل بين أمة تتخيل نفسها أكثر مما تبني نفسها. أمة تمشي داخل اللغة. داخل القصيدة. داخل الخسارة المؤجلة.

في المشرق العربي لم تكن السياسة تخرج من المصالح بقدر ما كانت تخرج من البلاغة. الزعيم يشبه شاعرًا متعبًا أكثر من كونه إداريًا. والشهيد فكرة جمالية أحيانًا، لا واقعة سياسية فقط. الأمة نفسها لم يكن ينظر إليها كمساحة جغرافية بل ككائن ميتافيزيقي، روح معلقة بين ماضٍ ذهبي ومستقبل خلاصّي. ولذلك بدا أن الرومنطيقية لم تستقر كحقل أدبي مستقل عن السياسة، بل هي السياسة حين فقدت برودتها وصارت تنطق كقصيدة.

لكن شيئًا ما – يبدو لي - ناقصًا في هذا التفسير. شيء أقدم تاريخيا لو تجاوزنا حقبة الرومنطيقية ، أعمق من اللغة الحديثة ذاتها. فالعصبية، كما لو أنها نهر قابع في عمق الأرض ، كانت تواصل جريانها تحت خرائط الأحزاب والشعارات. القومي يتحدث عن الأمة لكنه يعود إلى جماعته عند الخوف. والماركسي يتكلم عن الطبقة فيما يختبئ داخل شبكة من القرابات كثيفة. وحتى الدولة الحديثة، بمؤسساتها وأناشيدها ودساتيرها، كانت كثيرًا ما تستعير جلد الحداثة فيما عظامها ما تزال قديمة.

يبدو مفهوم العصبية عند ابن خلدون أقل افتتانًا باللغة وأكثر انتباهًا للمادة الخام للتاريخ. العصبية ليست خطأ أخلاقيًا عنده. إنها الطاقة الأولى. النار التي تجعل الجماعة قادرة على الحركة، على الاحتمال، على التوحش أحيانًا، وعلى بناء الدول أحيانا أخرى .

ولذلك لا يمكن تفكيكها كما تُفكك آلة. التاريخ لا يعمل بهذه النظرة الباردة للأشياء. لا توجد يد تقف فوق المجتمع وتقول: الآن انتهى القديم وبدأ الجديد. المسارات أكثر عتمة. أكثر التواءً. ثمة مصادفات كبرى، هزائم وحروب و انهيارات، وفجأة تظهر نافذة ضيقة تمر منها جماعة أو قائد أو دولة تمتلك حدس اللحظة، وقوة الإرادة .

لهذا لم يكن المطلوب في ظني قتل العصبية بل تحويل مجراها. إفراغها من دمها القديم وضخها بفكرة الدولة الحديثة. لا بوصفها قطيعة مع المجتمع، بل أفقًا أعلى يعيد ترتيب الولاءات. القبيلة لا تختفي، لكنها تتراجع خطوة إلى الخلف. الطائفة لا تموت، لكنها تكف عن كونها قدرًا سياسيًا. الناس يتعلمون الدولة ببطء، كما لو أنهم يتعلمون لغة جديدة، لغة لا تنكر ذاكرتهم لكنها تمنع الذاكرة من التحول إلى سكين قاتلة

وربما الرهان على الدولة هو في نهاية المطاف هو النجاح المأمول ليس باعتبارها جهازًا فقط، بل باعتبارها الإمكانية الوحيدة تقريبًا لتحويل الطاقة الاجتماعية إلى تاريخ. كل تحول في الوعي، في الثقافة، في معنى الفرد، كان يمر عبرها. المدرسة، الجيش، القانون، المدينة، الإذاعة، الطريق، الوظيفة، حتى شكل الحلم الشخصي؛ كلها كانت تخرج من رحم الدولة أو تتشوه بغيابها.

ولهذا لم تفشل الإيديولوجيات العربية لأنها بلا أحلام، بل لأنها لم تستطع أن تتحول إلى دولة حديثة بما يكفي. كانت ترفع شعارات أكبر من قدرتها المؤسسية. تقول الأمة فيما هي خائفة من المجتمع. تقول الحداثة بينما تستخدم الأدوات القديمة نفسها: الولاء، القرابة، الخوف، الغنيمة.

أما الإسلامويون فقد فهموا مبكرًا أن العصبية لا تُهزم بمواجهتها، بل باحتوائها داخل لغة مقدسة. وهنا صار الاجتماعي دينًا، وصار التاريخي أبديًا، وصارت بعض العادات القديمة تبدو كأنها نزلت دفعة واحدة من السماء. وهذه قوة هائلة، لأن نقد البنية الاجتماعية يتحول فورًا إلى اتهام بالكفر أو الخيانة أو فقدان الهوية.

لكن حتى هذا لم يكن استثناءً كاملًا. فقد كانت كل الأيديولوجيات، بصورة ما، تبحث عن خلاص عن معنى كبير يغطي هشاشة الواقع. القومي، الماركسي، الإسلاموي؛ جميعهم أبناء جرح واحد: الإحساس بأن العالم سبق هذه المنطقة، وأن عليها أن تقفز فوق تاريخها دفعة واحدة.

إلا أن التاريخ لا يقفز. إنه يتراكم ببطء، مثل طبقات الغبار على المدن القديمة. والدولة الحديثة نفسها لم تكن معجزة أوروبية خالصة، بل نتيجة قرون من إعادة تدوير العصبيات داخل القانون والمؤسسات والاقتصاد. هناك أيضًا كانت القبائل القديمة تتحول بالتدريج إلى أوطان.

لذلك تبدو الرومنطيقية العربية، في النهاية، أقل ارتباطًا بالأدب مما تبدو مرتبطة بالعجز عن إنتاج دولة مستقرة. كل شيء كان يبحث عن تعويض: القصيدة، الزعيم، الثورة، العقيدة، وحتى الهزيمة نفسها. كأن المنطقة ظلت طويلًا تعيش داخل استعارة كبرى، فيما الواقع منفصلا عنها تماما ، ثم يحدث أن تتحول الدولة نفسها إلى عصبية كبيرة. عصبية ترتدي بدلة رسمية، تتكلم باسم الشعب، ترفع العلم فوق المباني، لكنها في الداخل ما تزال تخاف. كل سلطة تخاف تعود إلى أصلها الأول: الجماعة الضيقة. كأن الحداثة في هذه المنطقة لم تستطع أن تثق بنفسها تمامًا. كانت دائمًا تنظر خلفها، إلى القبيلة، إلى الطائفة، إلى العائلة. فلم تكن الدولة العربية باردة بما يكفي. الدولة الحديثة تحتاج قدرًا من البرودة، من اللامبالاة النبيلة أحيانًا. القانون لا يسأل عن الدم. المؤسسة لا تفكر بالعاطفة. لكن المنطقة خرجت من تاريخ طويل كانت فيه السلطة امتدادًا للقرابة أو الغلبة أو الغنيمة، ولذلك بقيت الدولة، حتى وهي تتحدث لغة العصر، مشدودة إلى خوفها البدائي من التفكك.

خصومة إلى السياسي الخلاف بها يتحول التي الطريقة في .ًتقريب شيء كل في ذلك ملاحظة يمكن كان الجماهير حتى .الملهم الزعيم إلى الدائمة الحاجة في .النقد تجاه المفرطة الحساسية في .وجودية من أكثر الأب عن يبحث ظل العربي السياسي الوعي كأن .بالشخص تثق ما بقدر بالمؤسسة تثق تكن لم نفسها .الاجتماعي العقد عن بحثه

تنتج الباردة المجتمعات .ًأيض اجتماعية حرارة فائض بل ،ًخالصا ًتخلف يكن لم هذا أن والغريب يأخذ نفسه الحب . قسوة ،كثافة أكثر فالعلاقات هنا أما .ًأحيانا ًوجداني فقيرة لكنها قوية مؤسسات أن لو كما ،بالجماعة والاحتماء التكتل إلى يميل شيء كل . والدين الصداقة كما ًأحيانا العصبية شكل .بعد لاًكام يولد لم الفرد

بل ،الاستبداد من التخلص فقط تعني لا الحرية .الحديث العربي الوعي في ملتبسة الحرية فكرة لذلك

من ،ذاكرة بوصفها القبيلة من ،مأوى بوصفها الطائفة من .ًأيض القديمة الحماية من التدريجي الخروج إنه .بسهولة الأولى انتماءاته يغادر لا الإنسان لأن ،موجعة عملية وهذه .ًرمزيا ًأب بوصفه الزعيم .يضيع الدفء من ًشيئ أن ًدائم يشعر

ولا للماضي لاً◌كام ًرفض ليست فهي .ذاك أو الحد هذا إلى العربية الحداثة توتر مظاهر إحدى وهذه لكن حديثة الجامعة .قديم الخيال لكن حديثة اللغة .زمنين بين العيش من نوع .تجاوزه على كاملة قدرة تخفي كانت ،وإسفلتها بزجاجها ،الكبرى المدن حتى .شبح مثل داخلها في يقيم يزال ما الأهلي الوعي .والمناطق والطوائف للعائلات قديمة خرائط تحتها

كانت هناك لحظات اقتربت فيها الدولة من أن تصبح فكرة عامة فعًلا، لا ملكية خاصة لجماعة أو حزب أو قائد. لحظات شعر فيها الناس أن القانون يمكن أن يكون أعلى من الدم، وأن الوظيفة العامة ليست غنيمة، وأن الوطن ليس استعارة شعرية فقط. لكنها كانت لحظات قصيرة، لأن البنية القديمة كانت دائمًا أسرع في العودة، كأنها تعرف تضاريس الأرض أكثر من الأفكار الجديدة.

أسهل السلطة إسقاط أن بسرعة اكتشفت ،هائلة بأحلام لةّومحم صارخة جاءت التي تلك ،الثورات حتى كانت ولهذا .مؤسسة يبني كيف وحده يعرف لا لكنه ،التمثال هدم يستطيع الشارع .الدولة بناء من بكثير .أدوات بلا أنه يكتشف حين الكبير الحلم :للرومنطيقية الآخر الوجه هي ًأحيانا الفوضى

ربما الأعمق السؤال .وحدهما الرومنطيقية أو بالعصبية ًمتعلقا الحقيقي السؤال يبدو لا النهاية في: تعادي لا دولة ما؟ًأيض له تستسلم لا لكنها ،للمجتمع الاجتماعي التاريخ تنكر لا دولة إنتاج يمكن كيف .العراء في ًوحيد تتركه أن دون ًممكنا الفرد تجعل دولة .لها أسيرة إلى تتحول ولا ،الجماعات

طبقات داخل تعيش تزال ما المنطقة لأن .اً قريب حسمُ يـ لن وربما .بعد حسمُ يـ لم الذي الامتحان هو هذا وحداثة ،اً سياسي مؤجلة أديان ،حديثة نصف مدن ،ةّحي قبائل ،ميتة إمبراطوريات :الزمن من متعددة يحاول ثم التاريخ إلى اً متأخر يصل هنا الجميع كأن .تلهث وهي بالعالم تلحق أن وتحاول متأخرة دخلت العالي بالصوت ذلك تعويض .

لها يسمح الذي الإيقاع بعد تجد لم أنها بل ،فقط الحداثة عن تأخرت العربية المنطقة أن المشكلة ليست ،ٍماض بلا تصبح أن :ما اً شيئ تخشى كانت للعبور محاولة كل .ذاكرتها تفقد أن دون التاريخ تدخل بأن .نفسها داخل الانغلاق وخوف ،العالم في الذوبان خوف :خوفين بين تتأرجح ظلت ولذلك .يقين بلا ،جماعة بلا